مصافحة بين أدب نجيب محفوظ وسينما حسن الإمام

«بين القصرين»: فيلم وثق لثورة 1919 وأضاف لها أسئلة وجمالا

عشية الإعلان عن جائزة نوبل للآداب، ظلت الأسماء من الزمن (1911 - 2006)، أجرت إحدى المجلات كانت تدور أحداث جميع رواياته. يضم المتحف، فيما العربية خارج التخمينات والتوقعات، وبقى نجيب محفوظ حصاد العرب الأوحد في احتفالية الأكاديمية السويدية التي منحته جائزتها عآم 1988 وهو في سن السادسة والسبعين. وفي الذكري الثالثة عشرة على رحيل الأديب الندي امتدت حياته إلى ما يقارب القرن

حوارا مع ابنته هدى، تحدثت خلاله عن آراء والدها في الأعمال التي تناولتها السينما كما أعريت عن تخوفها من أن يتعرض اسمه للنسيان مع مرور الزمن، لكن الجميع، اليوم، يبدى ارتياحه وغبطته لافتتاح المتحف الذي يحمل اسم الأديب الراحل في قلب القاهرة حيث

يضمه من وثائق ومخطوطًات ومقتنيات نادرة، مكتبة سينمائية تخص روايات نجيب محفوظ، التي تحولت إلىٰ أفلام سينمائية، إذ وصل عددها إلىٰ 21 رواية امتدت على مستوى أجيال ومراحل عمرية متباعدة من القراء والمشاهدين وصناع السينما ونقادها وهي، على

التوالى: اللـص والكلاب، بين القصرين، بداية ونهاية، رقاق المدق، الطريق، القاهرة 30، خان الخليلي، قصر الشوق، السمان والخريف، ميرامار، السراب، ثرثرة فوق النيل، السكرية، الشحاذ، الحب تحت المطر، الكرنك، عصر الحب، الشيطان يعظ، وكالة البلح، قلب الليل، الحب فوق هضبة الهرم.



العمل الذي اعتبره النقاد والدارسون "جوهرة التاج وواسطة العقد" في المنجز الروائى لنجيب محفوظ الذي مستح قرابة القرن من تاريخ القاهرة، هو الثلاثية الشهيرة التي تضم "بسن القصرين"، و"قصر الشوق" و"السكرية"، وقد كتبها محفوظ بين عاميي 1956 و1957، علما أنّ نيله لجائزة نوبل للآداب عام 1988، كان عـن مجمـل أعماله التـى قالت عنها الأكاديمية السويدية في حفَّل التتويج

نتوقف عند رواية "بين القصرين" التي تناولتها السينما عام 1962، تحت نفس الاسم، وكانت من إخراج حسن الإمام، وذلك لما تمثله من قيمة توثيقية أرَّخت لشورة العام 1919 وكل ما حملته من تحولات اجتماعية وسياسية، يُراهن عليها في تأسيس وعي جديد كان بإمكانه أن يُشكل نهضة حقيقية، تُقيم القطيعة مع موروث مهترئ، وترنو إلى الالتحاق بركب الحضارة الحديثة في تلك المرحلة المفصلية من تاريخ مصر والمنطقة.

إنها "تخاطبنا جميعا".

كل ذلك، بالإضافة إلى القيمة الجمالية والبعد الفنى للفيلم الذي لم يكن مجرد محاكاة وترجمة بصرية للأثـر المكتوب، بل مجاراة لحركة إبداعية تشلق طريقها وسلط الكبار أنذاك، حيث تعيش السينما الواقعيــة مجدها فــى العالــم، وتنتعش حركات التحرر الاجتماعي والسياسي عبر حوامل إبداعية وأساليب تعبيرية تميزت بالجرأة والمصارحة في كشف أسباب الخلل ومواطن التخلف.

كان لـدى مصر أنـذاك مـا لا يمنعها من أن تكون في صفوف الكبار من صناع السينما الواقعيَّة: إرث أدبي وفكري أسس له مفكرون ومثقفون استثنائيون، صناعة سينمائية أقامها "الخواجات" وعلموها لأبناء البلد، بالإضافة إلى جمهور يتفاعل مع كل ما يمسه ويخاطب تطلعاته،

ولعل أهم دليل على نبوغ وألمعية هذا الأثـر الأدبى، ما قاله المفكر طه حسـين في شهادته عن ابن جيله نجيب محفوظ، "أتاح للقصة أن تبلغ من الإتقان والروعة، ومن العمق والدقة، ومن التأثير الذي يشبه السحر ما لم يصل إليه كاتب مصري قبله".

«بين القصرين» وما بين الحربين

الفيلم بيدأ بحدوتة مصرية من نسج خيال صاحب الثلاثية، وابن القاهرة الشعبية، دارس الفلسفة الذي أغواه الأدب، وراصد التحولات المجتمعية العميقة من خلال مشربية مصرية تطل منها امرأة على شارع تتقاطع فيه الأهواء والرغيات والطموحات،

أعمال نجيب محفوظ «تخاطبنا حميعا»

وينتهي عند مقولة كارل ماركس في أدب رائد الواقعية الفرنسية بلزاك، الذي تأثر به نجيب محفوظ "إنه يساعد على فهم المجتمع أكثر من كتب التاريخ أسرة السعد أحمد عبدالجواد، إيان

الحكم الإنكليزي وقبيل اندلاع ثورة 1919، هي منطلق نجيب محفوظ ومبتغاه في الثلَّاثية التي ترصد أهم التحولات والصراعات من خلال رب الأسرة الذي يتعامل بصرامة شديدة مع أفراد عائلته، ظنا منه أنه بضبط إيقاعها دون حدوث أي نشاز، فيعيش نوعا من الانفصام يتمثل في قسوته داخل البيت، وجبروته إزاء زوجــة خانعة، وانحلاله في الخارج بين أحضان الغانيات، بينما ينقسم ابناه ينضم إلى أحد التنظيمات السياسية السرية، في إشبارة إلىٰ تسرب وعي أخسر أفرزه هذا البناء الأسسري المتصدع بفعل التركيبة البطريركية التي تحكمه، كما ساهمت في صنعه أيضا، تطورات مجتمعية وسياسية خارجة عن إرادة

يتخللها من إرهاصات وتوجسات. الفرد الحائر داخل الأسرة التقليدية.

ولم يدع التوثيق التاريخي يفوته حين انتصر الإنكليز علىٰ الألمان في الحرب العالمية الأولى، فزادوا استقواء على المصرياين، ورفضوا مفاوضات الجلاء، وقبضوا على سعد زغلول، وقاموا بنفيه خارج البلاد، لتقوم ثورة 1919 التي اتحد خلالها الهلال مع الصليب، واستطاعت القوات الإنكليزية إخماد الثورة، وأقامت متاريسها في شوارع الجمالية، ليحبس السيد عبدالجواد في منزله.

كل شيء كان متقنا إلى حد الإدهاش في شريط قام باقتباسه عن الرواية وإعداد السيناريو والحوار له يوسف جوهر، وضم في طاقمه التمثيلي كلا من يحيي شاهين وزيزي البدراوي ومها صبري وعبدالمنعم إبراهيم وصلاح قابيل وأمال زايد، وغيرهم من خيرة ممثلي مصر أنذاك. لم يقع الرج بأي شحصية خارج منطـق الأحـداث فـي الفيلـم، كمـا في الرواية، فكلها تنتمي إلى الشارع المصري في أواخر العقد الثاني من

ووافديه ومستعمريه من الإنكليز.

القرن العشرين، بأبناء البلد، وخواجاته

السيد أحمد عبدالجواد أو "سي السيد" كما كانت تناديــه دائما زوجته الطيبة الخنوعة أمينة، مع أبنائه ياسين، وفهمي وكمال، وشيقيقتيهم خديجة وعائشة، شخصيات تؤثث لرواية "بين القصريـن" في الفيلـم، بكل مـا أوتيت من تناقضات ومصادمات، استخدمها نجيب محفوظ لعرض الأحداث ضمن تطورات درامية، لكنها توحي للقارئ والمشاهد بأنها من لحم ودم، وليست مجرد دمي لتجسيد الأفكار كما نلمس في الروايات التي تنزع نصو البعديْن

الذهني والتجريدي. كل الجرعات الدرامية كانت حاضرة، وبالمقدار الذي تقتضيه الضرورة في الشريط: أجواء الملاهي الليلية ومؤامرات، تفاصيل الحب البشري وما يعيقه من حواجز ومكدرات، ملاحم وطنية وما يتربص بها من خيبات وخيانات، وتحولات النفس البشرية وما

لم يغفل الشريط عن مشاهد "الأكشن" كما في اللقطة التي يظهر فيها فهمي وهو يلقّي بحقيبة المنشورات إلى مريم فوق السطوح حين حاصره الإنكليز، ويقنع أباه بضرورة الالتحاق بالثورة.

لا وجلود لشخصية خارج مخيال نجيب محفوظ في الرواية ومزاج حسن

الإمام في الفيلم. الكل يتحرك ضمن المسار الذي أريد له في "بين القصرين"، فلا مكان لليّ الحقائق من أعناقها، ولا وجود لمصير مغتصب. ومع الكثير من المفاجأة والتشويق والإدهاش.. أليس هذا ما يجب أن تكون عليه رواية جميلة، ويظهر فيه شريط مدهش؟ المصريون بجميع أطيافهم

المصريون حاضرون بجميع أطيافهم في فيلم "بين القصرين": الزوج المستبد، الزوجة الخنوعة، الفتاة الحالمة، الشساب المثابر، الصبية المستهترة، المرأة اللعوب، المواطن المتدين، الرجل المخدوع، المحتـل المخاتل، المثقـف الحالم.. وكثير أستاذ الأدب العربي في جامعة القاهرة إنه "جعل المجتمعات أفضَّل، حتى لو كان هــذا الحب يحدث على اســتحياء ورغما عن عادات المجتمع المصري، الذي كان ينظر إلى الحب بأعتباره عيبا كبيرا في

أما عن خفة الدم المصرية التي لم ينتبه إليها قراء ونقاد كثيرون، فقد قال عنها الشاعر نجيب سرور، بعد مشاهدته للفيلم وقراءته للرواية "إنى أعيب على جميع النقاد عدم انتباههم إلى الكوميديا الواضحة والبارزة جدا في ثلاثية محفوظ، وأدهش من أن خط الكوميديا فات كل نقادنا رغم كونها طابعا أصيلا للمزاج المصري الذي لا تستوقفه إلا النكتة الصارخة غير المعتادة".

"بين القصرين" كان فيلما "مصريا جدا" وواقعيا إلىٰ حد اعتبار كاتب روايته "بلزاك العرب"، ولريما تفوق على هذا التصنيف، ابن حـواري القاهرة التي لم يغادرها حتىٰ في احتفالية نوبل، وبعث من يستلم الجائزة نيابة عنه، وضاهى إيميل زولا في انطباعيته، ونافس مدرسة الروائيين الإنكليز الإدوارديين مثل كلزورذي، وبنيت، وغيرهما.. فلمأذا تسكننا عقدة المقارنات ونحن من جعل جائزة نوبل تتكلم لسانا عربيا فصيحا، وبلكنة مصرية؟

تحرر المرأة

المصريون يحتفلون هذا العام بالذكرى المئوية لشورة 1919، ولهذا التاريخ الذي اختاره نجيب محفوظ منطلقا لروايته، وجعل منه حسن الإمام

خلفية لشريطه السينمائي، دلالة لا لبس فيها على بروز المرأة المصرية كفاعل ومحرك لتلك الانتفاضية التي تجاوزت مجرد الاحتجاج السياسي ضد المستعمر الإنكليــزي كي تلامس الثــورة على بني اجتماعية متسلطة يهيمن فيها الذكر على الأنثى ويعتبرها من متاعه الخاص.

وفي هذا الصدد يقول المفكر محمد فريد في مذكراته "هــده الحركة لم تكن في الحسبان، وإن ما أظهره المصريون مـّن التضامـن والاتفـاق مـا كان أحـد يحلم به، خصوصا اشتراك السيدات في المظاهرات والاتفاق بين الأقباط

استند شريط "بين القصرين" على حائط متين اسمه رواية لنجيب محفوظ، صعيد الطرح والمعالجة والتشويق، لكنه بني نجاحاته أيضا على مرحلة كان فيها النضال النسوي في مصر في أوجه عطائه قبل الانتكاسات التي لحقت به في ما بعد، عقب صعود التيارات السلفية المتشددة، والتي شيطنت المخرج حسن الإمام، وحاولتُ اغتيال الكاتب نجيب محفوظ عقب الحادثة المعروفة في "ليلة السكاكين الطويلة" كما أسماها

لا يوجد عمل قدّم المرأة، دون زيادة أو نقصان، كما قدّمها فيلم "بين القصرين" الذي حظي برقم قياسي من المشاهدة رغم نخبوية الرواية. وهي معادلة تكاد تكون مستحيلة أو نادرة في تحويل رواية إلىٰ فيلم، أي نزعها من بين أكف القراء في الصالونات، وإشاعتها فيلما جماهيريا في الصالات.

يسرى الناقد والأكاديمسي المغربسي مصطفئ البورسعيدي، أن نجيت محفوظ، يبرز في "بين القصرين" صورة المرأة المصرية "بكل ندوبها وأوجاعها مع الحفاظ علىٰ التطور التاريخي في بناء هذه الصـورة"، مضيفا أنها "تخدم الرواية من جهة، وتكشف جوانب من مراحل تطور المجتمع المصري والعربى من جهة أخرى، فالمرأة هي أم وزوجة والنة وخادمة ومنحرفة أي أنها نماذج بشسرية للمجتمع من وجهة نظر نسائية ملمة وصحيحة".

أما الكاتبة ماجدولين الرفاعي، فتلقى بتساؤل مربك، لكنه قد يكون مشروعا من خلال قولها في معرض تناولها للمرأة في الفيلم، والرواية على حدد سواء "المرأة القديرة والقوية في هذه





🕳 استند فيلم «بين القصرين» على حائط متين اسمه رواية نجيب محفوظ، بكل ما تمثله من أسباب النجاح

الواضح أن نجيب محفوظ قد حسم أمره في الرواية، والتحق به حسن الإمام في الفيلم ليبين الاثنان أن النموذج الغربى هو الأمثل لتحرير المجتمع من سلطة الرجل الذي يعامل زوجته كجارية، وربط العمل في نسختيه الأدبية والسينمائية، التحرر السياسي بالتحرر الاجتماعي، مؤكدا أن الشعوب لا يمكن لها أن تتحرر وتحلق بجناح واحد بل باثنين متوازيين متكافئين هما الرجل

الأكاديمية السويدية حاولت هذا العام "تأنيث الجائزة" ومنح الكتابة النسائية مساحة أكبر للتعبير عن نوازعها منذ أزمنة بعيدة، لكن الفائز بجائزتها عام 1988 تفطن لهذا الأمر قبل أصحابها والمشرفين عليها فأتاح لبياض ورقه أن تحتله النساء بكل اختلاجاتهن وحسراتهن وزفراتهن في الشرق الحائر. ألا يستحق ابن القاهرة الضحوك الباسم